بورخيس .. الشرق في جدول أعمال غربي

غدير أبو سنينة

كغيره من الشخصيات العامة واكب الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس الكثير من الأحداث السياسية التي مرت ببلاده وبالعالم وكان عليه وهو الذي يقطن عالما آخر يسكنه الإبداع والخيال والأدب أن يطل –شاء أو أبى- على عوالم أخرى لن تعبر فضاءاتها لا عن الأفكار ولا عن العواطف التي صدّرها بورخيس في أعماله.

لم يكتب بورخيس في حياته نظريات سياسية وهو الذي يحفل رصيده بعدد كبير من المقالات والقصص والقصائد التي تحوي معان أخلاقية عميقة جعلته متميزا عن غيره من الأدباء.

ولد بورخيس لعائلة ميسورة الحال، وقد قضى شيئا من طفولته وشبابه في جنيف، المدينة التي تلقى بها تعليمه الجامعي قبل أن يعود للأرجنتين وينخرط بالنشاط الأدبي.

إذن فقد كان بورخيس ينتمي للطبقة النبيلة في الأرجنتين كما كان متعلقا جدا بأسلافه ومآثرهم. وربما لهذا السبب يفسر النقاد مواقف وتصريحات بورخيس السياسية بأن الكاتب الذي رشح لجائزة نوبل عاش حياة اجتماعية سهلة بعيداعن أي نوع من المعاناة والاضطهاد الأمر الذي جعل نظرته السياسية قاصرة.

بورخيس الذي قال يوما إن الأوروبيين يتمتعون بالذكاء لأنهم لم يمنحوه جائزة نوبل، لم تكن السياسة أولى اهتماماته رغم أن مقالته الأولى كانت عن سيرة بيو باروخا الذي صفق لمواجهته مع القومية الباسكية الوليدة في ذلك الحين.

لم يتمتع بورخيس بقدر من الحنكة السياسية ولم يعين في أي منصب سياسي لكنه وجد نفسه يقف مع اتجاهات ضد أخرى متكئا في معظم الأحيان على شعوره كما يبدو من تصريحاته المختلفة. ويبدو أنه بتلك التصريحات لم يكن يهدف للوصول لأي مركز اجتماعي أو سياسي وهو المعروف بابتعاده كل البعد عن الوصولية والانتهازية ولأن الكثيرين يعزونها لما سموه (غباء بورخيس السياسي)، لم تستمر تلك الهجمات على رأيه إلا في وقتها ثم تبددت شيئا فشيئا بسبب حجم وأهمية أعماله التي ودون أدنى شك تطغى على أهمية آرائه تلك.

مغازلة الفاشية العسكرية في تشيلي:

في الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٦، وبعد يوم واحد من مقتل وزير الخارجية التشيلي الأسبق أورلاندو ليترلير في واشنطن، في يوم الأربعاء ذاك، وحيث قامت الدنيا ولم تقعد في تشيلي، وصل خورخي لويس بورخيس لمبنى دييغو بورتالس ليجتمع بالجنرال بينوتشيه.

امتد اللقاء لساعة وأتبعه اجتماع آخر قصير مع الجنرال لي في ذات المبنى لكن هذا الاجتماع نسي بسرعة وكان التركيز الأكبر على اجتماعه مع بينوتشيه.

لم يعلم أحد ماحدث في ذلك الاجتماع المغلق وبقي كل ما قيل به في غرفة مغلقة ولم يخرج للعلن سوى صورة بينوتشيه بزيه العسكري وهو يصافح الأديب الأرجنتيني.

كان بورخيس حينها يبلغ السابعة والسبعين من العمر، وكان شبه أعمى لكن وجهه الباسم في الصورة كانت تبدو عليه آثار الارتياح والانبساط وهو يمد يده مصافحا الطاغية التشيلي وقد عبر عن ذلك في اجابته للصحافيين حال خروجه بقوله "راض جدا".

يقول ناقدون إن هذا التصريح قد يكون ضمن ما قاله بورخيس لبينوتشه أما ما قال بينوتشه لبورخيس فسيبقى أمرا غامضا صعب التقدير، فالجنرال لم يكن شخصا بليغا، ولم يعرف بثقافته الواسعة بل كان سياسيا يهاجم اليسار ولذلك من المستبعد أن يكون الاجتماع قد تحدث عن

الأدب بشكل عام أو عن أعمال بورخيس بصفة خاصة.

أحد المسؤولين في مبنى دييغو بورتاليس علق فيما بعد على ذلك الاجتماع بأن بينوتشيه لم يكن على اطلاع على أعمال الكاتب الأرجنتيني، بل كان مهتما بتاريخه الذي مر به عسكريون من أسلافه الذين شاركوا في حربي الاستقلال بتشيلي والأرجنتين.

ومهما كان موضوع الحديث الذي دار بينهما، فقد كانت أهمية زيارة بورخيس لبينوتشيه هو التأثير الإعلامي الكبير لصالح الديكتاتورية.

يفسر الكثيرون عدم منح نوبل للكاتب الأرجنتيني بسبب موقفه ذاك فقد تلقى هجوما واسعا لما اعتبر مساندة للديكتاتورية، وما كانت الأكاديمية السويدية لتنسى اجتماع مرشحها بأحد الطغاة في العالم والذي وصفه بورخيس بأنه "كاتب ممتاز" وأضاف "إنني شخص شديد الخجل، لكن بينوتشيه عمل جاهدا كي يتبدد خجلي، وبسهولة تم الأمر..هنا وفي وطني وفي الأوروغواي تُنقذ الحرية والنظام، وخصوصا في قارة تعيش في فوضى بتأثير من الشيوعية... أعبر عن رضاي كأرجنتيني بمجاورة بلد يسود فيها النظام والسلام لا فوضى فيها ولا شيوعية".

لقد كانت تلك الزيارة تشكل غطاء شرعيا وثقافيا للحكم الديكتاتوري العسكري الذي دأب على انتهاك حقوق الإنسان، فبورخيس بزيارته تلك أسهم في دعمه بصوته.

من زاوية أخرى يرى آخرون أن بينوتشيه الذي كان عسكريا فذا كان قد أصدر كتابا في وقت سابق قبل أن تسرقه السياسة تماما، ولربما أحس حينها بمساواته (على المستوى الثقافي) بشخصية (أدبية) مثله تقف أمامه هي شخصية الأديب بورخيس. أما بالنسبة للأخير فلربما أرجع وجود كتاب في مسيرة بينوتشيه لثقافة الأخير التي رأى بورخيس أنها تبرير كاف ليجتمع برجل (مثقف) يحمي البلاد من فوضى الشيوعية.

بعد ثلاثة أيام من وصوله تشيلي اجتمع مع الكاتبة التشيلية ماريا لويسا بومبال خلال مؤتمر صحافي عبر فيه بصراحة عن تعاطفه مع النظام العسكري في تشيلي حينما أعلن "أدافع عنه لأنني عاطفيا أشعر أن علي ذلك. ربما عواطفي هناك تحدثت أكثر مني. إنني أدافع عنه لأسباب عاطفية قبل أي شيء فأنا عدو للشيوعية. أظن أن هذا ليس بالأمر الغامض. ولا أستطيع إخفاءه. لطالما تأثرت بتشيلي ويبدو لي لو تم إنقاذ تشيلي فهذا يعني إنقاذنا. إننا بحاجة لضمانة، أنا

كأرجنتيني بحاجة لضمانة".

المفقودون في الأرجنتين ليسوا بريئين تماما:

في العام ١٩٨٠، وهو عام شكل نقطة تحول في التاريخ الأرجنتيني. نشرت في الخامس عشر من مايو من ذلك العام في صحيفة كلارين آخر قصة من قصص بورخيس بعنوان "ذاكرة شكسبير". وبطلب من أمهات وجدّات "بلاسا دي مايو(١) كتب في ذات الصحيفة وفي ذات العام "مناشدة من أجل المفقودين". هؤلاء المفقودين الذين فقدت عائلاتهم أخبارهم، كان لبورخيس الأديب والإنسان أن يتعاطف معهم، لكن اللهجة التي كتب بها استرحامه ربما لم تكن بتلك الحدة التي تنتظرها تلك الأمهات اللاتي لم يتوقفن عن الاعتصام من أجل أبنائهن إذ قال "في مساء يوم ما زارني في بيتي أمهات وجدات "بلاسا دي مايو" يروين لي ما حدث. بعض النساء بكين بطريقة تمثيلية، لكنني شعرت أن الكثيرات منهن بَكيْن بصدق، لأن الواحد منا يستطيع أن يشعر بالحقيقة. كم أنهن مسكينات وبائسات!. لكن هذا لا يعني أن أبناءهن كانوا أبرياء دوما. لا يهم. فكل متهم من حقه أن يحاكم... عندما تعمقت أكثر بأمر هؤلاء المفقودين شعرت بسوء فظيع. قيل لي إن أحد الجنرالات صرح بأن من بين مائة شخص مخطوف خمسة مذنبون، لقد بُرِّر قتل الخمسة وتسعون الباقون. هل عليه أن يقدم نفسه للخطف والتعذيب والموت كي يثبت صحة هذه النظرية؟ حرب العصابات والإرهاب موجودان بالطبع لكن ليس هما النموذجان المحبذان بالطبع".

كما رأينا سابقا فقد كان شعور بورخيس هو ما يحمله على الإدلاء بأفكاره السياسية ولذا سنتفهم اتهامه من قبل كثيرين بالجهل السياسي ليس فقط بسبب وقوفه مع بينوتشيه بل حتى في استرحامه لحل مشكلة المفقودين بدأ أول الأمر بالتشكيك بصدق بعض الأمهات وإلقاء اللوم على الأبناء الذين هم مذنبون برأيه، وفي حديثه عن الجنرال الذي عرض عليه أن يجرب ما يفعل بالآخرين، أظهر تناقضا حينما قال إن هناك ٩٥ بريئاً، إذ كان الأجدر به أن يدافع عن تلك النسبة الكبيرة قبل أن يؤكد أن هناك خمسة مذنبين، مع العلم أن معظم المفقودين كانوا يختطفون لأسباب تتعلق بآرائهم ونشاطهم السياسي.

ما قام به بورخيس بمناشدته تلك ومع أنه يحمل في طياته نفسا تعاطفيا قرر أن يبرر له حين وضح إن تعاطفه ناتج من دموع النساء وتابع القول إن من حقهم أن يكون لهم محام أي أنه ليس ضد اعتقالهم بالأساس. بورخيس أراد في ذلك أن يمسك العصا من المنتصف فأبدى تعاطفه المنطقي مع المفقودين لكنه لم يتخذ موقفا صارما ضد الديكتاتورية.

الشرق الذي سحر بورخيس:

شعر بورخيس منذ شبابه بالحاجة للتعرف أكثر على الآداب، ونشأة الأديان وطرق التفكير وكان فضوليا لمعرفة حضارات الهند والصين واليابان ولمعتنقي الإسلام فيها أو لمن مارس النظام المعقد في تبرير وتفسير العالم المختزل في (الكابالا). سافر بورخيس في عدة مدن في الشرق كما قال "زرت طرفي الشرق، مصر واليابان، لكنني أريد أن أعرف الصين والهند وبلاد فارس أيضا".

قرأ بورخيس العديد من الكتب عن الشرق. وقد عبر بورخيس لزوجته ماريا كوداما أنه كان يرغب بدراسة اليابانية التي بدا متأثرا بثقافتها حين كتب قصائد هايكو. بحثت له كوداما عن مدرس ياباني لكنها لم تجد في سويسرا معلما لتلك اللغة فاقترحت عليه أن يدرس العربية كبديل وقد راقت الفكرة لصاحب "ألف ليلة وليلة" راقت له الفكرة وقال لزوجته أن تتصل به فورا وبدأ بتلقي الدروس بالعربية من قبل مدرس مصري كان قد قرأ أعماله بالعربية والإنجليزية، واستمر بذلك حتى وفاته.

يرى البعض أن بورخيس قرأ الشرق بعين الغرب؛ فبورخيس لم يتخل عن عقليته الغربية وهو يحاول التعرف على الآخر. كثيرون قالو إن بورخيس حلم بثقافة الشرق من جدول أعمال غربي. درس بكثير من المنهجية الفكر الشرقي مؤكدا على فكره الغربي لكنه عمل على التفتيش على الأطر الرمزية للشرق والغرب كي يحصل على العقد المتشابكة التي تجمعهما.

إسرائيل أرض الحليب والعسل:

كل ما سبق يجعلنا لا نستغرب أن يتعاطف بورخيس مع إسرائيل. هذا التعاطف الذي انبثق أولا من حبه للثقافة اليهودية التي تعرف على كثير من أقطابها كالأديب اليهودي كاسينوس

أسينس الذي اعتبره معلمه الأول وكتب فيه قصيدته:

" شرب كمن يشرب نبيذا معتقا

المزامير وأناشيد الكتاب المقدس

وشعر أنه امتلك تلك الحلاوة

وشعر أن ذلك قدره".

صرح بورخيس في أكثر من مناسبة أنه يظن أن دما يهوديا يجري في عروقه بسبب وجود أسماء يهودية في شجرة عائلته كاسم أسفيديو. وقد تأثر بورخيس بالدماء الأوروبية من جهة أمه التي تنتمي لأصول إسبانية وبرتغالية وبريطانية إضافة لإقامته في جنيف فيما يؤكد الباحثون كالباحثة إدنا آيزينبيرج أن بورخيس كان أرجنتينيا ولم يكن يهوديا استخدم البوابة السفاردية للدخول إلى الثقافة اليهودية، حتى أنه انتمى لمركز الدراسات السفاردية عام ١٩٦٥.

أما برناندو إزيكيل كورومبلت فقد نقل عن بورخيس قوله: "أحد أسباب سعادتي أن أفكر أنه بامكاني الانتماء لشعب موسى بن ميمون، لشعب إيهوذا هاليفي والسفيروت".

"إلى إسرائيل" كانت قصيدته التي أهداها لذلك الكيان الغاشم عام ١٩٦٧:

"من سيخبرني إن كنت تجرين

في متاهة أنهار دمي الضائعة منذ قرون

يا إسرائيل؟

في أي الأماكن طافت دماؤنا؟

لا يهم، أعلم أنك:

في الكتاب المقدس المطوق للزمن

في تاريخ آدم الأحمر

وفي ذاكرة وعذاب المصلوب.

في هذا الكتاب أنت،

مرآة تُرى فيها:

الوجوهُ المنحنيةُ على نفسها

ووجه الرب الكريستالي القاسي

حيث الفزع في الثنايا.

بوركت يا إسرائيل، لتحمي جدار الرب

في قلب المعركة".

تأثر بورخيس بالصوفية الإسلامية في أعماله كالألف وغيرها لكنه عرف بتأثره أيضا بالكابالا وهي الصوفية اليهودية التي عمقت علاقة بورخيس باليهودية. وقد قال إن أيا منا ينتمي لحضارتين هما اليهودية واليونانية ولذلك فأعماله تتضمن الأحداث والأمثال التوراتية وهذا ليس بالأمر الغريب فالأدب الغربي بشكل عام متأثر بكتب وثقافة العهدين القديم والجديد.

يرى بورخيس كما الكابالا أن للكلمة والحرف معنى خفيًّاً، وهما يتمتعان بذات قداسة الكتاب. وهذا تماماً ما طبَّقه الكباليون على دراسة الكتابة؛ إذ تتنزل -بحسب اعتقادهم- الروح القدس على الأدب فيُنتج كتابا بعيدا عن الصّدفة. إنهم ينطلقون من قاعدة أن الكتابة نصٌّ مطلق، وفي النص المطلق لا يُمكن لشيءٍ أن يكون عملاً خاضعاً للصُّدفة.

أعمال بورخيس كانت تحاول أن تتقرب لسر الخلق الكوني الذي يشكل للكابالا الغائية النهائية. لكن بالنسبة لبورخيس فقد رأى أن المتعة تكمن في استحالة تحقيق تلك المحاولة. وقد اعتقد أن الكابالين لم يكتبوا كي يُسهِّلوا الحقيقة بل كي يُلمِحوا إليها ويُحَفِّزوا بحثهم.

أما انحيازه الكامل لإسرائيل فقد عبر عنه بورخيس بقوله "... بدون اسرائيل فإن التاريخ سيبدو غريبا. إسرائيل ليست فقط فكرة مهمة للحضارة، بل هي فكرة لا غنى عنها، لا يمكن تخيل الثقافة دون إسرائيل".

لقد سمّى إسرائيل بأرض الحليب والعسل وبالأمة الشابة التي تستحق أن تثير قلقه إذا ما دخلت في حرب كما حدث عام ١٩٦٧.

منحت إسرائيل عام ١٩٧١ بورخيس جائزة القدس التي تعد أعلى تكريم تمنحه الدولة، الأمر

الذي ثمنه بورخيس كثيرا فهو يحب القدس التي قال عنها "لا توجد مدينة في العالم بأسره يتوق المرء إليها كالقدس. إنها الكأس التي تنسكب وتتراكم فيها الأحلام والتهجدات والصلوات ودموع من لم يرها أبدا لكنه شعر بجوع وعطش نحوها".

وقد ظهر "خوفه" على هذه "الأمة الشابة" في قصيدته التي كتبها عام ١٩٦٩:

خشيت على إسرائيل

من هذا الحنين المتربص بعذوبة ماكرة

المتراكم ككنز حزين منذ قرون الشتات:

في مدن الجحيم، في الأحياء اليهودية،

في نهايات السهوب، في الأحلام،

حنين أؤلئك الذين يتوقون إليك يا قدس،

بجانب مياه بابل،

ماذا كنت غير هذا الحنين يا إسرائيل؟

غير تلك الرغبة في النجاة من تقلبات الزمن؟

غير كتابك القديم الساحر

غير صلواتك وعزلتك مع الرب؟

ليس الأمر هكذا.

فأقدم الأمم هي أكثرها شبابا،

لم تُغرِها أسماء الجنائن،

ولا الذهب وضجره

بل باصرار كانت: وطنا أخيرا.

قالتها إسرائيل دون كلمات:

ستنسين من أنتِ

ستنسين الآخر الذي تركتِهِ

ستنسين من كنتِ في البلاد

التي منحتكِ مساءاتها وصباحاتها

والتي لم تمنحيها حنينك

ستنسين لغة آبائك وتتعلمين لغة الفردوس

ستكونين إسرائيل، ستكونين جنديا

ستبنين مستنقعات الوطن، ستعمّرين صحاريه.

سيكون أخوك الذي لم تري وجهه قط

بجانبك

فقط نعدك بأمر واحد

أن يكون لك مكان في المعركة.

أمهات بلاسا دي مايو: هي حركة بدأت عام ١٩٧٧ بتجمع ١٤ أماً في ساحة "ميدان مايو" أمام قصر الرئاسة ليطالبن بمعرفة مصير أبنائهنَّ المختفين، ولأنهن مجرد مجموعة من الأمهات المسالمات فقد تركهن العسكر، إلا أن الحركة اتخذت في الاتساع وفي اكتساب الشعبية حتي أصبحت هي الحركة السياسية والمعارضة الوحيدة، التي لم يستطع النظام قمعها يوما. فهي منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم تواصل التجمهر في ساحة الميدان من خلال آلاف الأمهات كل يوم خميس، واللاتي لم يتخلفن مرة واحدة لأكثر من ٣٠ عاما ليطالبن بحق أبنائهن الذين لم يعرفن أبدا ما حدث لهم، ومحاكمة القتلة، بل وتطورت الحركة لتنادي في وقفتها الأسبوعية بعدم تكرار ما حدث لأبنائهن الشباب ليس فقط في الأرجنتين، ولكن في أي مكان آخر في العالم.

http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=639896&eid=6744""